

وسلم على أمته لم يقتصر على قوله: ﴿أنا سيد ولد آدم يوم القيامة﴾ لأن هذه العبارة تحتمل - لو صدرت من غيره - الفخر، فبين أنه لم يقلها للفخر وإنما قالها لبيان حقيقة حاله وتعريف أمته رفعة مقامه وعلو منزلته عند الله تعالى، وانفراده بالشفاعة العظمى كما هو تنمة الحديث لئلا يتعبدوا في المحشر بتطلب الشفعاء.

قال الإمام الشعراني في كتابه «اليواقيت والجواهر»: قال الشيخ محي الدين رضي الله عنه: وإنما أخبرنا صلى الله عليه وسلم بأنه أول شافع وأول مشفع شفقةً علينا لنستريح من التعب الحاصل بالذهاب إلى نبي بعد نبي في ذلك اليوم العظيم، وكل منهم يقول: نفسي نفسي، فأراد إعلامنا بمقامه يوم القيامة لنصبر في مكاننا مستريحين، حتى تأتي نوبته صلى الله عليه وسلم ويقول: «أنا لها، أنا لها»، فكل من لم يبلغه هذا الحديث أو بلغه ونسيه لا بدّ من تعب وذهابه إلى نبي بعد نبي، بخلاف من بلغه ذلك ودام معه إلى يوم القيامة، فصلى الله عليه وسلم ما أكثر شفقتة على الأمة. وإنما قال في آخر الحديث: ﴿ولا فخر﴾ أي لا أفتخر بكوني سيد ولد آدم من الانبياء فمن دونهم، وإنما قصدت بذلك راحتكم من التعب يوم القيامة بحكم الوعد السابق لي من الله عزوجل أن أكون أول شافع وأول مشفع. فما زكى صلى الله عليه وسلم نفسه إلا لغرض صحيح، وكذلك تزكية جميع الأئمة لأنفسهم لا تكون إلا لغرض صحيح، فانهم منزّهون عن رؤية فخر نفوسهم على أحد من الخلق اهـ.

ولهذه الحكمة خص سيادته صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق بيوم القيامة وإلا فهو صلى الله عليه وسلم سيد الناس بل وسيد جميع خلق الله تعالى في الدنيا والآخرة ولكن سيادته على الخلائق إنما تظهر ظهوراً تاماً للعالمين يوم القيامة فيسلم بها ويشاهدها الموافق والمخالف من أمته